## الكتابة بالألم:

# في رواية جراح الروح والجسد لمليكة مستظرف

**بوشعيب الساوري***

■ أحيانا تكون الكتابة ترفا فكريا ومتعة جمالية، وأحيانا أخرى تكون معاناتنا دافعا للكتابة والبوح والصراخ في مواجهتها، ينطبق هذا الكلام على المبدعة مليكة مستظرف التي ولجت عالم الكتابة من باب الألم والمعاناة مع المرض.

تحاول مليكة مستظرف في روايتها الأولى جراح الروح والجسد1 تكسير الطابوهات ونزع الأقنعة بتسليط الضوء على بعض الظواهر الاجتماعية وبعض السلوكات التي تدخل في إطار المسكوت عنه، فالكتابة عندها صرخة مقاومة ومواجهة مدوية ضد الألم والخراب الروحي. بجرأة في الطرح وصدق في تحريك المسكوت عنه الذي نعجز عن البوح عنه. تقول في إحدى حواراتها: «بالنسبة لروايتي: (جراح الروح والجسد) فهي نسخة من الألم والغضب، ربما الظروف التي عشتها عبر غسل الكلي بالدياليز، وعملية جراحية فاشلة، كل هذه الأشياء دفعتني للكتابة، حيث كانت علي ضغوطات، فكان يجب علي أن أفجرها بطريقة، أو بأخرى عبر الكتابة. والكتابة بالنسبة لي هي نوع من المخدر، يلهيني عن التفكير في الألم، فإذا استمريت أفكر في الألم والمشاكل التي أعانيها صحيا، وبكل صراحة سوف أجن، أو سأنتحر، لذلك الكتابة كانت عندي نوعا من المخدر، و نوعا من المهدئ لهذا العالم الذي أعيشه، لأغرق في عوالم أخري وشخصيات أخرى»2

### عنف المجتمع

يعد اغتصاب الأطفال هو البؤرة التي يتأسس عليها السرد في الرواية، منها يبدأ الجرح ومنها يبدأ السرد. تلك الظاهرة التي نسمع عنها كثيرا في أخبار الحوادث. انطلاقا من حادثة اغتصاب الساردة وهي طفلة في السنة الرابعة من عمرها من قبل رجل غريب لا تعرف عنه إلا لون وجهه الأسود، تبدأ الفاجعة انطلاقا من حسد طفلة في السنة الرابعة من عمرها، ثم وهي ابنة السادسة، ثم وهي ابنة الثالثة عشرة من قبل بقال الحي الذي استغل سذاجتها الطفولية وقرب والدها قدور، الذي كان يرغمها، لكنها تعجز عن البوح نظرا لوجود مجموعة من الطابوهات التي تمنعها من ذلك. تكبر الطفلة وتكبر معها جراحها الجسدية والروحية، وتنفتح عينها على تناقضات أسرتها وتناقضات مجتمعها. انطلاقا من عنف الوالدين عليها، سجن الوالدة لها وتعذيبها، العنف داخل البيت(الوالد على الوالدة)، عنف المعلمة:"كلهم يصرخون. أبي، أمي"، قدور القذر"، المعلمة. لماذا لا يتكلمون بلطف؟» (ص 27). وتسلط الأب برفضه أن تتم تعليمها بالرباط. يقول لها بعد أن استشارته في أمر متابعة دراستها بمدينة الرباط: «اسمعي كلام الجرائد هذا لا يلزمني. قوليه هناك في المدرسة أو الجامعة. لكن في بيتي أنا من يقرر وأنا من يحكم. لا سفر معناه لا سفر» (ص 60). ومحاولته إجبارها على الزواج من قدور مغتصبها في الطفولة، طمعا في ثروته يقول والدها:"ماذا به قدور؟ لديه عمارة من خمس طوابق هنا بالمغرب ورصيد ضخم في البنك وسيارة.. و.. و» (ص 75).

فتجد الساردة نفسها أمام مجموعة من المفارقات، انطلاقا من تعريضها للتعذيب على فعل لا تفهم عنه أي شيء بينما أختها خديجة التي تمتهن الدعارة وتفعل ما تشاء ولا احد يسألها. فتزداد استفهاماتها الطفولية من فعل أفعال لا تعرف سببها. تقول مستفهمة: «لما لا ينتقم الله منها؟ في كل الأفلام التي نراها يعذب الله الأشرار وينتقم منهم وينصر المظلومين. لكن متى ينتقم الله منها؟ متى ينتهي هذا المسلسل؟ يبدو أن الأشرار يموتون في الأفلام فقط أما في الواقع شيء آخر» (ص 40) وتنفتح عيناها على العديد من التناقضات التي يعيشها المجتمع كالتمييز بين الذكور والإناث. تقول: «خيانة الرجل ليست كخيانة المرأة» (ص 71) وتناقضات الأب الذي يتميز بالشح داخل البيت وبالتظاهر بالتدين وفي المقابل يبحث عن بائعات الهوى ويتظاهر بالغنى أمامهن. وخيانة زوجة الأب. فتخلد للمونولوج الداخلي لأنها لم تجد من تبوح له بمأساتها، المونولوجات كأداة لمقاومة الواقع القاسي. تقول في أحد مونولوجاتها: «أبي ماذا تفعل أنت الآخر هناك؟ تبذر أموالك في تلك الشقق وخديجة تأتي بها من هناك. أية سخرية؟» (ص 44).

كما تجد في الاستيهامات التي تلجأ إليها أداة للمقاومة: «أسرح بأفكاري ثانية، أتخيلني رجلا شرطيا طويل القامة. ألقي القبض على «قدور القذر» أضربه ضربا مبرحا في بطنه. أحمل سيخا حديديا أضعه في النار حتى يحمر وأكوي قضيبه حتى ينتفخ وأراه يتلوى أمامي من الألم. يركع عند قدمي يقبلهما وأنا أرفسه بقدمي وبعنف وأغرز أظافري في وجهه حتى يسيل الدم وأعلقه في ميدان عام ويرجمه الأطفال بالحجارة ويموت. تأكل الكلاب جثته النتنة، تهزني يد بعنف. أستفيق من حلمي الرائع» (ص 36ـ37) وفي أحيان أخرى تلجأ إلى أسلوب السخرية، مثلا في حديثها مع نفسها عن فعل أختها خديجة التي امتهنت الدعارة: «نزعت ملابس «العمل» وارتدت الجلابية والبلغة ووضعت المنديل على رأسها كأنها مريم العذراء انتهت للتو من صلاتها» (ص 43). محاولة تشبثها بخيط من الأمل، بناء البطلة لحب وهمي مع طالب لبناني لكن دون جدوى، والذي عاد إلى بلده. تقول: «وأنا أنتظر أن يأتي حبيبي وينقذني مما أنا فيه ونتزوج ونعيش في ثبات ونبات ونخلف صبيان وبنات. هكذا علمونا في الأفلام المصرية» (ص 48).

وفي الغالب ما يكون الصمت هو ملاذها: «كنت أصمت لأنه لا أحد يصدقني. أرى واصمت. علموني أن أبتلع لساني وأصمت» (ص 30).

### من الصمت إلى المواجهة

تواجه البطلة واقعها وتصفي الحساب معه على عدة مستويات:

أولا بالبوح لصديقتها إلهام التي وجدتها ملاذا للبوح، والتي تبوح لها هي الأخرى بمأساتها: «هل تظنين نفسك الوحيدة التي اغتصبت في الطفولة؟ إنك واهمة إن حكايتك لا شيء بجانب الحكايات الأخرى.. ستجدين داخل كل بيت حكاية يندى لها جبين الشيطان وسأعطيك مثالا بسيطا على ذلك: أنا. هل تعرفين من كان يغتصبني في الطفولة؟ خالي وأخي. لا تفتحي عينيك دهشة. انتظري حتى أكمل. كانا يتناوبان علي: يخرج خالي ويدخل أخي الأكبر والوحيد. كنت حينها في الرابعة ربما اغتصباني وأنا ما زلت رضيعة في المهد من يدري؟ أنا الأخرى لم أقل لوالدتي شيئا لأنها لم تكن موجودة بكل بساطة. يا إما في «البار» أو سكرانة» (ص 81). وتتمردان على واقعهما المزيف. وتبوح لها كذلك بشرى التي التقتها في البار:"المهم ذلك العام ذهبنا إلى أرفود كالعادة. كنت أكره تلك المدينة. كانت كالسجن: حرارة لا تطاق، لا يوجد أي مكان للتسلية، رمال، رمال. شيء واحد كان يصبرني هو أنني كنت أعرف أنني سأعود إلى فرنسا: الحرية، الأوكسجين. في أحد الأيام قال أبي لنا أنا وأختي:

ـ ستتزوجان ابني عمكما وتسكنان هنا في أرفود

ضحكنا. ظننا ها نكتة. لكنها أبدا لم تكن نكتة. كانت كابوسا مخيفا. أتعرفين ماذا كانت حجته؟ قال انه يخاف أن نبلغ سن الرشد ونتمرد عليه ونتزوج أجانب. والدتي لم تستطع الدفاع عنا. لم أستطع أن أتخيل نفسي واحدة مثل باقي النساء: آكل، أتغوط وأفتح فخذي لأنجب دزينة من الأطفال. وأرفود هذه أكرهها. مزق جوازي سفرنا، ليبقى حل واحد الهرب. لم أفكر أبدا في الانتحار. هربنا إلى البيضاء والنهاية ها هي أنا هنا، أختي في أكادير مع الخليج والألمان وأبي يبحث عنا وأنت تتفرجين وأنا أسكر وأدخن الحشيش وانتظر زبونا جيبه منتفخ أذهب معه واسرقه صباحا»ـ ص 87ـ88).

تؤكد هذه الحكايات التي ترويها الساردة وإلهام وبشرى أنهن ضحيات للمجتمع ومؤسساته وتنشئته الاجتماعية الخاطئة، وقيمه الخاطئة، وتصوراته الدونية للمرأة. عبر هذا البوح أدركت الساردة بأن تجربتها ليست تجربة شخصية وإنما هي ظاهرة اجتماعية.

كما تبوح لزوجة مغتصبها قدور. التي تبوح لها باغتصابه لأولاده.» (ص).

هنا تؤكد الساردة أن الأمر لا يتعلق بظاهرة فردية، وإنما بظاهرة جماعية، فتنتقل من كتابة سيرة طفلة ضحية إلى سير مجموعة من ضحايا مجتمعها الموبوء.

وثانيا بالفضح المباشر والكشف عن المسكوت عنه، عبر مواجهة أقربائها، بحوار قواميه التهكم السقراطي وإرباك الخصم وتعريته من الأقنعة التي يختبئ وراءها.

مواجهة الأب: وإحراجه، عندما طرحت عليه السؤال حول ما إذا كان يخون زوجته، فيرتبك فتجيبه: «لا أكاد أفهم إنكم تجيزون أشياء وتحرمون أخرى حسب أهوائكم» (ص 70). رأيت وجهه أصفر كما لم أره من قبل» (ص 71). مواجهة زوجة الأب: «وأنت كم مرة أسقطت نفسك؟ هل تظنيني غبية؟ رائحتك الكريهة قبل الزواج وبعده تزكم الأنوف. هناك في دوار « أولاد مصباح» ألم تحبلي سفاحا مع راعي غنم؟ وأسقطت نفسك ولولا الرشوة والمحسوبية لكنت دخلت السجن. تكلمي لماذا احمر وجهك؟ عجبا يا أولاد القحاب ان وجوهكم لازالت تحمر خجلا. وبعد الزواج.. ألم تخوني أبي مع الجميع؟ حتى مع بائع الأواني المتجول؟ لقد رأيتكما. هل تذكرين؟ رفع سرواله واختفى. وعندما ذهب أبي إلى الحج اختفيت أنت الأخرى ولم تأت إلا قبل مجيئه بيومين. ادعيت أنك كنت عند أهلك بدوار «أولاد مصباح» في حين أنك كنت عند قوادة في درب السلطان. الأخبار السيئة هي التي تصل. أما الجيدة لا تهم أحدا» (ص 78).

مواجهة الأخ وإبراز تناقضاته وإحراجه: «لكن بودي لو أسألك أنا كذلك: لماذا لم تسألها قبل الآن؟ لماذا لم تقل من أين لك هذا عندما كانت تدفع مصاريف دراستك في المدرسة الراقية الحرة التي اخترتها عوض الجامعة؟ أربع سنوات وهي تدفع مصاريف دراستك وملابسك ومصروف جيبك ولم تفكر في طرح أي سؤال عليها، والآن بعدما تخرجت وأصبحت في مركز مرموق أصبحت تطرح الأسئلة وتستعرض عضلاتك ورجولتك» ( ص 51) احمر وجهه، تلعثم، كور قبضته و ضرب المائدة الرخامية» (ص 51).

مواجهة الأخت خديجة: «لا لم أنس أبدا. كما لم أنس كم تركتني في الحديقة وحدي، وكم أخذتني الى تلك الشقة المتعفنة وشقق أخرى كثيرة. تقفلين علي الباب وتنصرفين لمجونك. ولم أنس كذلك ضربك لي وإهاناتك المتكررة وسجني داخل المرحاض المظلم المليء صراصيرا.. فئرانا وعفاريت. كيف لي أن أنسى كل هذا؟ أنت لم تكوني أما لي أبدا، كنت جلادي لسنوات وأشفق على هذا الطفل القادم لن تستطيعي أن تكوني أما له» (ص 105).

وذلك بوضع بعض القيم الاجتماعية والأخلاقية موضع تساؤل كالشرف والخيانة.

وثالثا بمحاولة إصلاح هذا الواقع بالموافقة على إنشاء جمعية رفقة الفرنسية، عبر الأمل الذي يجسده سفرها إلى فرنسا، «الآن ازداد اقتناعي بضرورة السفر، لو أستطيع تغيير جلدي وعظامي وحتى هذا الدم الذي يجري في عروقي لما ترددت لحظة واحدة» (ص 107). وتقول الساردة لأختها خديجة: «سأسافر لكنني سأعود لأجل دعاء ابنة إلهام، لأجل هذا الطفل الذي سيولد لكي لا ترتكبي جريمة في حقه هو الآخر» (ص 107).

ورابعا جراح الروح والجسد تقرر البطلة التي لا تحمل اسما، بعد خوف وتردد البوح بمأساتها. هناك إصرار على البوح السير الذاتي: «اليوم لملمت ما تبقى من شجاعتي وقررت أن أقول كل شيء بدون خوف أو حشومة .. أو عيب..سأحكي بكل جرأة..سموني ما شئتم زنديقة..مجنونة..فما عدت أهتم..لقد طفح الكيل» (ص 5).

هكذا مارست مليكة مستظرف في رواية جراح الروح والجسد الفضح بامتياز، وحاولت الكشف عن الطابوهات التي تعشش في واقعها، عبر البوح والمكاشفة حينا والمواجهة حينا آخر.

### الآخر والأمل

تتأثر علاقة الأنا بالآخر، بوضع البطلة وجراحها ووضعها بين أهلها ووطنها، إذ تعيش الغربة داخل الأهل، تقول: «لم نجتمع منذ زمن طويل على صينية شاي. ونحكي همومنا وأحلامنا. كنت أحس بالغربة معهن. آلاف من المسافات الضوئية تفصل بيننا. في بعض الأحيان لا يكون المرء في حاجة للسفر بعيدا لكي يحس بالغربة، يمكننا أن نحس بها ونحن بين أهلنا وفي بلدنا» (ص 102).

أمام هذا الوضع يصبح لآخر الغريب قريبا والقريب غريبا، انطلاقا من حادثة اغتصابها الأول من قبل الرجل الأسود، إذ وجدت الحنان والإنسانية في امرأة أوربية في مقالب لم تجد من والدتها وأختها إلا التعذيب.

*باحث في السرد العربي من المغرب

## شاهد في

# ثقافة المانعة

**خيري منصور***

■ أخيرا، تولى متعهدو تصنيف الثقافات الأمر نيابة عن أولي القهر والفقر، وأصبح علينا أن نبدأ من الخاتمة ما دامت المقدمات كلها قد أدرجت في خانة البديهيات، وسواء كانت المانعة في البدء أو بعده بكثير، فإنها كلمة السر والمفتاح السحري لتاريخ موصد أراد له فقهاء التدجين أن يهجع في غمده الجغرافي الى الأبد محروما من أية قيامة!

ان ثقافة المانعة ليست فقط على النقيض من ثقافة القطعنة والامتثال، انها المستقبل المدجج بمضادات الاستنقاع، والملقح ضد التكرار العقيم، والنمو الدائري لتاريخ يأكل نفسه!

وفي هذه الآونة حيث يندفع الالتباس الى اقصاه وتحذف آخر شعرة فاصلة بين وعيين، أحدهما مفارق للواقع والآخر مطابق له حتى الامحاء والتلاشي، يصبح لزاما على المشتغلين في هذه المهنة أن يذودوا قدر المستطاع عن ضرورتهم وجدواهم، لأن حذفهم أصبح مدرجا على القائمة ذاتها التي تضم قرارات اعدام تصفية ذهنية وجسدية لكل ما هو ناتئ وخارج المدار والسرب ذي الأجنحة المهيضة.

ثقافة الترويع، هي النتاج أو الافراز البكر لثقافة اخرى أعم، تلعب دور الحاضنة الدافئة لحراك مضاد، وقد مهد له الثقافة تربويا من خلال الزجر وأدبياته الخرقاء ومن خلال أعراف لها سطوة الناموس وليس القانون فقط!

لهذا فإن انفجار حزمة المكبوتات بدءا من الجسدي حتى السياسي بات متوقعا لأن النمر الذي عاش على العشب مع قطيع الخراف زمنا، شاهد صورته على صفحة الماء، وقرر أن يعود الى ذاته محررا من الثغاء الذي تلقنه.

ومحرضات هذا العصيان ليست كما يقول هواة الاختزال والتسطيح بفضل فضائيات منعتقة من الجاذبية. انها من صميم السؤال البشري الخالد الذي ما أن يهجع زمنا حتى يعاود الاندلاع، ولا سبيل الى ايقافه أو نكوصه إلا إذا كانت عودة الأنهار الى المنابع علّنة!

لقد جرب الانسان والعربي بوجه خاص فقه الامتثال، وتلبية المطلوب منه رغما عن ارادته وانتهى الى هذه المحاصيل المرة بدءا من هزائم تأقلم معها وأدمنها وانتهاء باغتراب حرمه من ملكوت الذات وزجه في جحيم المنفى، الذي ينعدم فيه الزاد والماء والرفيق كما يقول ازرا باوند!

وثقافة المانعة ليست كتبا تقرأ أو مناهج تقرر، انها الحراك المقترن برافعة غير مرئية، وقد لا يشعر بوجودها الانسان السادر في غيبوبته، والذي تحول جسده بفضل فائض الزجر الى زنزانة جلدية تسعى! وقد يكون الاغريق القدماء هم أول من اهتدوا الى المعادلة الجذرية والأصعب في رياضيات المعرفة كلها، وهي ان الاحرار وحدهم من يناط بهم عبء الوجود فلا الأوطان ولا العقائد ولا المقدسات تعثر على حراس أشد نبلا من هؤلاء لأنهم باختصار يعانقون أقدارهم بحرية واختيار ولا يعملون صاغرين تحت السياط!

وقد يكون سؤال الحرية قبل أن يتحول الى أحجية يتداولها العبيد، وتحتكر السلطة وحدها الاجابة او التفكيك هو توأم الانسان ان لم يكن الانسان ذاته، وقد تجلى في كينونة لا تقبل الاخصاء والمصادرة، ولو شئنا لاغراض اجرائية أو استجابة لهاجس سجالي ان نقرأ معظم ما يكتب الآن بالعربية فان اول ما نقع عليه وبلا مواربة هو الالتباس المزمن حول مفهوم الحرية وسؤالها الوجودي، خصوصا بعد ان اختزلت الى أدنى ابعادها السياسية، وصارت علاقة تتمدد او تنحسر بين حاكم مستبد ومحكوم خائر ولدينا في أدبيات النهضة المجهضة في القرن التاسع عشر من الأمثلة ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن ورثة ذلك القرن وتلك النهضة عادوا الى ما قبل التاسع عشر بقرنين او ثلاثة على الأقل رغم البهرجة الكرنفالية لحداثة تشبه الطلاء والحرية الزائفة التي تضاعف طول الحبل الذي يربط الحصان أو الحمار الى وتد!

فما تنبه إليه الكواكبي مثلا حول طبائع الاستبداد كان جديرا بملحق عصري يضيفه أحد احفاده الى ذلك السفر، وهو صنائع الاستبداد، فما بين الطبائع والصنائع قرن ونيف من ثقافة مرتهنة لوسيط وناقل وأجير، حيث كان الكومبرادور في بعده الثقافي على الأقل يزرع الصحراء بالتفاح أو يصنع الفاصوليا من الطين كما قال ميلر عن توأمه رامبو، في زمن تحول فيه الحشاشون والقتلة الى قديسين ذوي مسوح بيضاء وأقنعة شديدة الالتصاق بالوجوه! حتى ليتعذر اسقاطها إلا بالسلخ!

قد يكون مصطلح العولمة مرادفا للقطعنة وتحويل البشر الى كتل صماء بلا ملامح، تقاس أهميتهم بالمواقع التي يحرسونها، لهذا لم يبدأ ما يسمى بالنظام العالمي الجديد في غسق الحرب البارد كما يتوهم مؤرخو ربع الساعة الأخير، فقد بدأ بقياس اخر وحاسوب اخر عشية سقوط غرناطة عام 1492 وهو العام ذاته الذي شهد اكتشاف العالم الجديد الذي عوقب مكتشفه لسبب بالغ القدم، وهو عجزه عن ايقاف بيضة الدجاجة على أحد قطبيها! لهذا يحتفل احفاد ذلك العالم المكتشف على طريقتهم بذكرى زائر الفجر الأسود كما يسميه ريجيه دوبريه ويحطمون آخر أنصابه وتماثيله بالمعاول، وللنظام الجديد، ثقافته ومرجعياته التي لم تبدأ قبل عقدين أو ثلاثة، بل بدأت عندما بدأ رأس المال المغامر يفتح أفقا جديدا، لكي يعيد اغلاقه بالظلام، فالرأسمالية المتوحشة وذات الأنياب كانت عشية ذلك السقوط في طور العذراء إذا صح لنا أن نستعير من سيرة الفراشة ما يعبر عن سيرة الذئب.

وللرأسمالية ثقافتها المتراكمة التي تهدف أولا وأخيرا الى تسليح كل شيء بما في ذلك الانسان، بحيث يتحول الى طاقة معروضة للايجار وأحيانا للبيع، لهذا لم يكن مصطلح شعوب للايجار الذي اقترحته السيدة شميل حكرا على شعوب الاقتصاد الريعي في القرن العشرين فقط، فمنذ روما القديمة واسبارطة وحروب أحصنة الخشب الطروادية كانت هناك شعوب معروضة للايجار، وتقدم حوارية شهيرة بين الاسكندر المقدوني وديوجين مثالا بالغ الوضوح عن حضارة السخرة، التي بلغت خريفها مبكرا وكان السوس قد عشش في صولجانات أباطرتها!

وان كان أحد المؤرخين وربما أكثرهم سذاجة قد قال بأن الحضارة الرومانية انتهت وتحطمت الامبراطورية المترامية التي جسدتها بسبب عدم اكتشاف البنسلين.

ان المانعة كما عبر عنها سقراط عندما تجرع كأس السم وعوقب على اختلافه في ثقافة الائتلاف القسري، ما تزال سارية النفوذ حتى مطالع هذه الألفية الثالثة لكن سقراط الحديث لا يتناول السم طواعية لتنفيذ حكم القبيلة، بل يوضع له السم في الدسم وأحيانا في مسامات اصابعه لأنه من سلالة محظورة، يهدد تكاثرها السلطة بمعناها البدائي بانتهاء الصلاحية، وقد تكون ثقافة المانعة مجرد جملة واحدة معترضة في ثقافة داجنة وسائدة فالمسألة هنا لا تقاس بالعدد، لأن المانعة فكرة قابلة لأن تبث وبائيا كما يرى خصومها المتضررون من قوتها وشحنتها العصية على الاستئصال، فما كان للمسيحية ان تصبح على ما هي عليه لو أن المسيح لم يصلب، ولعل ما قاله برنارد شو عن عدم مسيحية المسيح وما قاله آخرون عن عدم ماركسية ماركس أو فرويدية فرويد هو في نهاية المطاف التعبير الدقيق عن الفكرة عندما تتأدلج وتتحول الى أيقونة!

لم يبق أمام فقهاء ثقافات القطعنة والاخصاء والامتثال والتقريد إلا أن يلقحوا الاطفال بمضادات المانعة كما لو أنها حصبة أو جدري يباغت البالغين ولا يبرأ منها حتى هؤلاء الذين حولوا أجسادهم إلى أغماد أو زنازين!

وقد يكون التاريخ في واحد من أهم تجلياته ومن خلال جدليته الخالدة هو الصراع بين نزعة التأقلم ونزعة التجاوز، وهي الثنائية التي اطلق عليها ارنولد توينبي التحدي والاستجابة وان كانت في جوهرها الامتثال والعصيان ولولا هذه الجدلية، لما استمر التاريخ لأن المهزوم فيه قد هزم الى الأبد والظافر فيه استولى على الزمان كله!

وان كان هناك أمصال أو لقاحات لثقافة المانعة فهي كبسولة تحتشد فيها مضادات التأقلم والقطعنة والسير بمحاذاة الجدران، لأن العقاب جاهز لمن يحلقون عاليا وضد جاذبية التراب والكهوف وأعراف الديدان. كان عليهم أن يختاروا بين الجهر بدوران الأرض أو المحرقة!

* شاعر وكاتب من الاردن

## صدرت في بيروت وعلقت هناك بسبب الحرب

# «باب الحيرة» ليحيى القيسي: رواية تحتفي بالمقدس والمهمش

**عمان ـ «القدس العربي»:**

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، صدرت للكاتب الأردني يحيى القيسي روايته الأولى «باب الحيرة» ولكن ظروف الحرب وانقطاع الطرق البرية الجوية حالت دون وصولها مع عدد آخر من الكتب الأردنية والعربية كما أشار الناشر ماهر الكيالي، وفي روايته هذه يغوص القيسي عميقا في القلق الوجودي وحيرة الإنسان أمامه، ويقود شخصياته نحو عوالم من الأجواء الغريبة والعجيبة، ضمن سرد حداثي يأخذ من اللغة العربية جماليتها وثراء مفرداتها ومضامينها، مضيفا إليها نكهة اللهجة التونسية المطعمة بالفرنسية أحيانا.

الشخصيات من هذا الزمان : هاديا الزاهري الأندلسية الجذور ، وسعيدة القابسي، وقيس حوران، وجميعهم منشغلون بهواجسهم اليومية وثقل التاريخ وهموم الجغرافيا، فيما يؤثر مخطوط سري قديم مزدحم بالتهتك والمدنس والمقدس بحياة قيس، الذي يعاني أصلا من وطأة الهزائم والعلل والنكسات لأمته العربية، أما المكان الذي تدور فيه الأحداث فهو تونس العاصمة.

الرواية المكثفة اللغة والأحداث، وذات الشعرية العالية، والجرأة في الطرح جاءت في مائة صفحة، وصمم غلافها وخطوطها الشاعر زهير أبو شايب ،ومن بعض صفحاتها نقرأ: «أبيضٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...، أكلّتُهُ بالرؤية العَطْشَى، كانَ مَدعُوكاً بالمَرَمْرِ، مَفروكاً بالزّعفران، مَرشُوشاً بماءِ الوَرْدِ، يَفيضُ بتَمرٍ جَدَلِ وانتظر زبونا جيبه منتفخ أذهب معه واسرقه صباحا»ـ ص 87ـ88).

تؤكد هذه الحكايات التي ترويها الساردة وإلهام وبشرى أنهن ضحيات للمجتمع ومؤسساته وتنشئته الاجتماعية الخاطئة، وقيمه الخاطئة، وتصوراته الدونية للمرأة. عبر هذا البوح أدركت الساردة بأن تجربتها ليست تجربة شخصية وإنما هي ظاهرة اجتماعية.

كما تبوح لزوجة مغتصبها قدور. التي تبوح لها باغتصابه لأولاده.» (ص).

هنا تؤكد الساردة أن الأمر لا يتعلق بظاهرة فردية، وإنما بظاهرة جماعية، فتنتقل من كتابة سيرة طفلة ضحية إلى سير مجموعة من ضحايا مجتمعها الموبوء.

وثانيا بالفضح المباشر والكشف عن المسكوت عنه، عبر مواجهة أقربائها، بحوار قواميه التهكم السقراطي وإرباك الخصم وتعريته من الأقنعة التي يختبئ وراءها.

مواجهة الأب: وإحراجه، عندما طرحت عليه السؤال حول ما إذا كان يخون زوجته، فيرتبك فتجيبه: «لا أكاد أفهم إنكم تجيزون أشياء وتحرمون أخرى حسب أهوائكم» (ص 70). رأيت وجهه أصفر كما لم أره من قبل» (ص 71). مواجهة زوجة الأب: «وأنت كم مرة أسقطت نفسك؟ هل تظنيني غبية؟ رائحتك الكريهة قبل الزواج وبعده تزكم الأنوف. هناك في دوار « أولاد مصباح» ألم تحبلي سفاحا مع راعي غنم؟ وأسقطت نفسك ولولا الرشوة والمحسوبية لكنت دخلت السجن. تكلمي لماذا احمر وجهك؟ عجبا يا أولاد القحاب ان وجوهكم لازالت تحمر خجلا. وبعد الزواج.. ألم تخوني أبي مع الجميع؟ حتى مع بائع الأواني المتجول؟ لقد رأيتكما. هل تذكرين؟ رفع سرواله واختفى. وعندما ذهب أبي إلى الحج اختفيت أنت الأخرى ولم تأت إلا قبل مجيئه بيومين. ادعيت أنك كنت عند أهلك بدوار «أولاد مصباح» في حين أنك كنت عند قوادة في درب السلطان. الأخبار السيئة هي التي تصل. أما الجيدة لا تهم أحدا» (ص 78).

مواجهة الأخ وإبراز تناقضاته وإحراجه: «لكن بودي لو أسألك أنا كذلك: لماذا لم تسألها قبل الآن؟ لماذا لم تقل من أين لك هذا عندما كانت تدفع مصاريف دراستك في المدرسة الراقية الحرة التي اخترتها عوض الجامعة؟ أربع سنوات وهي تدفع مصاريف دراستك وملابسك ومصروف جيبك ولم تفكر في طرح أي سؤال عليها، والآن بعدما تخرجت وأصبحت في مركز مرموق أصبحت تطرح الأسئلة وتستعرض عضلاتك ورجولتك» ( ص 51) احمر وجهه، تلعثم، كور قبضته و ضرب المائدة الرخامية» (ص 51).

مواجهة الأخت خديجة: «لا لم أنس أبدا. كما لم أنس كم تركتني في الحديقة وحدي، وكم أخذتني الى تلك الشقة المتعفنة وشقق أخرى كثيرة. تقفلين علي الباب وتنصرفين لمجونك. ولم أنس كذلك ضربك لي وإهاناتك المتكررة وسجني داخل المرحاض المظلم المليء صراصيرا.. فئرانا وعفاريت. كيف لي أن أنسى كل هذا؟ أنت لم تكوني أما لي أبدا، كنت جلادي لسنوات وأشفق على هذا الطفل القادم لن تستطيعي أن تكوني أما له» (ص 105).

وذلك بوضع بعض القيم الاجتماعية والأخلاقية موضع تساؤل كالشرف والخيانة.

وثالثا بمحاولة إصلاح هذا الواقع بالموافقة على إنشاء جمعية رفقة الفرنسية، عبر الأمل الذي يجسده سفرها إلى فرنسا، «الآن ازداد اقتناعي بضرورة السفر، لو أستطيع تغيير جلدي وعظامي وحتى هذا الدم الذي يجري في عروقي لما ترددت لحظة واحدة» (ص 107). وتقول الساردة لأختها خديجة: «سأسافر لكنني سأعود لأجل دعاء ابنة إلهام، لأجل هذا الطفل الذي سيولد لكي لا ترتكبي جريمة في حقه هو الآخر» (ص 107).

ورابعا جراح الروح والجسد تقرر البطلة التي لا تحمل اسما، بعد خوف وتردد البوح بمأساتها. هناك إصرار على البوح السير الذاتي: «اليوم لملمت ما تبقى من شجاعتي وقررت أن أقول كل شيء بدون خوف أو حشومة .. أو عيب..سأحكي بكل جرأة..سموني ما شئتم زنديقة..مجنونة..فما عدت أهتم..لقد طفح الكيل» (ص 5).

هكذا مارست مليكة مستظرف في رواية جراح الروح والجسد الفضح بامتياز، وحاولت الكشف عن الطابوهات التي تعشش في واقعها، عبر البوح والمكاشفة حينا والمواجهة حينا آخر.

### الآخر والأمل

تتأثر علاقة الأنا بالآخر، بوضع البطلة وجراحها ووضعها بين أهلها ووطنها، إذ تعيش الغربة داخل الأهل، تقول: «لم نجتمع منذ زمن طويل على صينية شاي. ونحكي همومنا وأحلامنا. كنت أحس بالغربة معهن. آلاف من المسافات الضوئية تفصل بيننا. في بعض الأحيان لا يكون المرء في حاجة للسفر بعيدا لكي يحس بالغربة، يمكننا أن نحس بها ونحن بين أهلنا وفي بلدنا» (ص 102).

أمام هذا الوضع يصبح لآخر الغريب قريبا والقريب غريبا، انطلاقا من حادثة اغتصابها الأول من قبل الرجل الأسود، إذ وجدت الحنان والإنسانية في امرأة أوربية في مقالب لم تجد من والدتها وأختها إلا التعذيب.

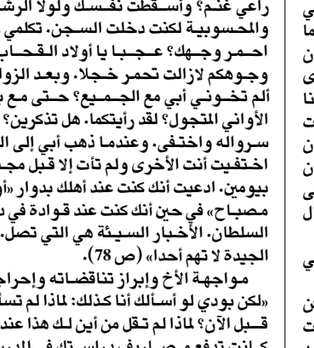

يحيى القيسي (القدس العربي)

وثائقيا تلفزيونيا، وهو عضو رابطة الكتاب الأردنيين، ومؤسس في اتحاد كتاب الانترنت العرب.

## تنطلق فعالياته اليوم بمشاركة عربية ومتوسطية:

# وديع سعادة وعبد الكريم الطبال يمتنعان عن المشاركة في مهرجان «لوديف» الشعري احتجاجا على العدوان الاسرائيلي على لبنان

**لوديف (جنوب فرنسا)**

**ـ «القدس العربي»:**

مهرجان «صوت المتوسط» الذي تنظمه مدينة لوديف في جنوب فرنسا، يبدأ فعالياته في الثاني والعشرين من هذا الشهر، ويستمر حتى الثلاثين منه.

قبل أن يبدأ المهرجان ألقت بظلالها، على تحضيراته، الجرائم الإرهابية الإسرائيلية التي ترتكب على مرأى من العالم بأسره، وتبرير مبطن من قبل بعض الدول العربية التابعة لأمريكا وإسرائيل، بحق الفلسطينيين واللبنانيين. الشاعر وديع سعادة المقيم في استراليا أرسل برقية إلى إدارة المهرجان يشكرهم فيها على الدعوة، وعلى الحفاوة والإصرار على مشاركته ودعوته من استراليا، وتنظيم عدد من اللقاءات الشعرية والموسيقية له، هو المعروف عنه عدم محبته للمهرجانات. بعض ما تضمنته برقيته «احتجاجا على دعم العالم بأسره، لضرب لبنان وإبادة اللبنانيين، أرسل إدانتي ليس إلى القتلة فحسب، إنما أيضا إلى الصامتين عن القتل. أرى أن المشاركة في مهرجان في هذه الظروف، كمن يشارك في مأتم جماعي». وأضاف الشاعر: «شعري مرتبط ارتباطا بالعالم والأشياء، ولطالما كتبت عن الحرب، فأنا لا يمكن أن أكون بعيدا إطلاقا عما يجري». أيضا من المؤكد أن يلاقي الشاعر الفلسطيني غسان زقطان صعوبة هائلة تحول دون خروجه من فلسطين، نظرا للحصار الإرهابي الإسرائيلي المفروض على الشعب الفلسطيني. أيضا الشاعر المغربي عبد الكريم الطبال، هو الآخر اعتذر عن المجيء بسبب عنف القتل الإسرائيلي وصمت العالم العربي. هذا وقد عدل المهرجان بعض فعالياته إذ أضيفت أمسية شعرية خاصة، سيتم فيها قراءة قصائد مختارات من الشعر الفلسطيني، فضلا عن قراءة قصائد للشاعر وديع سعادة، باللغتين العربية والفرنسية.

والحال، ان المهرجان الذي يجعل كل فعالياته الموسيقية والغنائية والحكائية تلتف وتنعقد حول الشعر، عرف نجاحا كبيرا في فرنسا وفي بلدان المتوسط.

سمح المهرجان في دوراته الثماني الماضية، ويسمح لعدد كبير من الأصوات الشعرية بالخروج من بلدانها المتوسطية والتلاقي معا. كما اشتهر المهرجان، باختياره الأصوات الشعرية من خارج المؤسسات، بما فيها تلك الأصوات الشابة. عدد الشعراء المشاركين في كل دورة يتجاوز التسعين شاعرا، يتوزعون على مختلف المدارس الشعرية المعاصرة. الشعراء أصحاب التجارب الكبيرة، والشعراء الشباب الذين يتقدمون بخصوصية واضحة، يلتقون معا، وتمحي الحدود والفوارق بينهما، ولا يعود سوى الشعر جسرا للعبور. الثلاثمائة وخمسون فعالية شعرية وموسيقية وغنائية في هذه الدورة تترافق مع فعاليات مرتجلة تسمح للمهرجان بأن يتحرر من قسرية التنظيم والتحضير وتجعله ينفتح على أفق من الحرية التي تخرجه من أسر التنظيم والالتزامات التحضيرية عبر التقيد ببرنامج معين، فعلاوة على البرنامج المعد والمرافق للمهرجان، فإن أي شاعر يمكنه أن يقرأ شعره في شكل حر على المتلقين، في أماكن مخصصة لذلك، حتى وان لم يكن مدعوا، فضلا عن الموسيقيين الذين يمكنهم أن يعزفوا بحرية تامة من خارج البرنامج.

العدد الكبير من الشعراء العر